مجلة كلية
الدعوة الإسلامية

العدد الثالث عشر
1996

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1425 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1996 أفرنجي

المنهج العلمي عند العرب

أبحاث منقودة

العامل النحوي في ميزان النقد

تراجم من الفكر الغربي

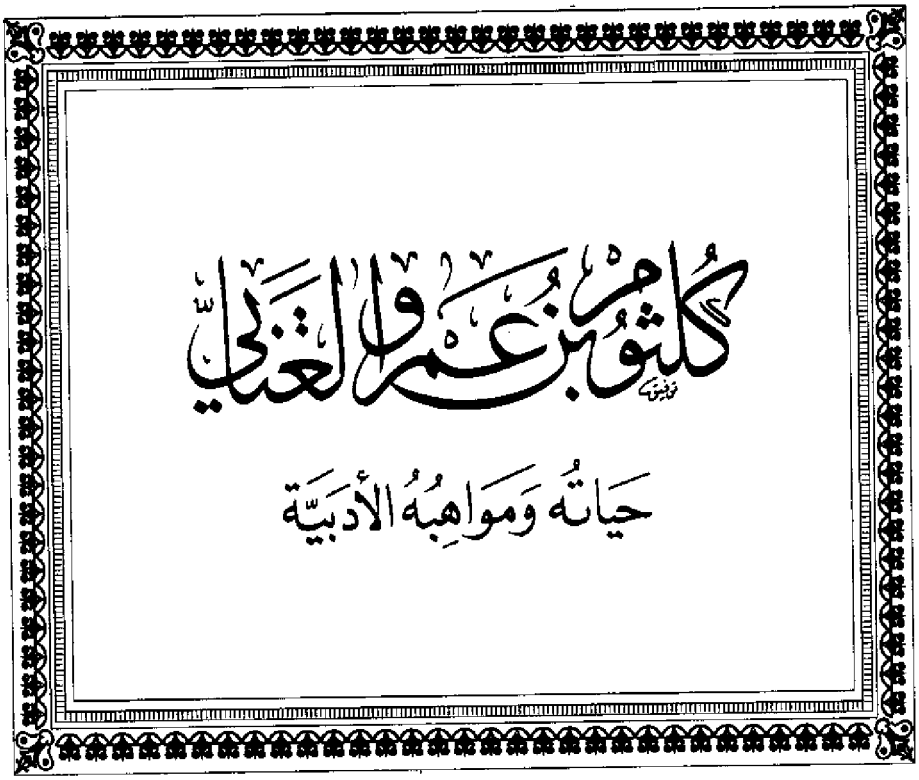

د. جميل علوش

أولاً: دراسة مصادره:

كلثوم بن عمرو العتابي من أدباء العصر العباسي الأول البارزين. وقد ورد ذكره في مصادر متعددة قديمة وحديثة. غير أن أبرز المصادر الأساسية التي تطرقت لذكره ما يلي:

1 ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ـ أبي محمد عبد الله بن مسلم، (276 هـ/ 828 م).

2 ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ـ علي بن الحسين، (356 هـ/ 966 م).

3 ـ تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ـ أبي بكر أحمد بن علي، (463 هـ/ 1070 م).

4 ـ معجم الأدباء لياقوت الحموي ـ أبي عبد الله بن عبد الله، (626 هـ / 1227 م).

5 ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ـ أبي العباس شمس الدين، أحمد بن محمد بن أبي بكر (681 هـ/ 1282 م).

ومما هو جدير بالملاحظة أن معظم هذه المصادر تكرر أخباراً محددة، وقلما تجيء بجديد. ويبدو من ثم أن الفرق بين مصدر وآخر من هذه المصادر في أن بعضها يوجز وبعضها يطنب، على أن من الجدير بنا ـ ونحن نتحدث عن المصادر الأساسية التي تناولت العتابي ـ أن نذكر الحقائق التالية:

1 ـ أن المصدر الأول الذي تطرق إلى هذا الأديب الكبير هو كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة 276 هـ/ 828 م.

2 ـ أن أكثر المصادر توسعاً وإفاضة في الحديث عن العتابي هو كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني المتوفى سنة 356 هـ/ 966 م.

3 ـ تعتمد هذه المصادر كلها على الأخبار المتناقلة، ومنها ما يسند الخبر كالأغاني، ومنها ما لا يسنده كغيره من المصادر.

4 ـ ليس في هذه المصادر ما يلجأ إلى النقد والتحليل، كما نعرفها في أيامنا. بل كل ما تتضمنه روايات وأخبار يستطيع الدارس أن يستخلص منها ما يشاء.

5 ـ إن الذي ينعم النظر في الروايات التي تتناقلها هذه المصادر، يجد فيها كثيراً أو قليلاً من الخلاف الذي لا بد أن نرده إلى اختلاف وسائل النقل. فبعضها يعتمد على النقل الشفهي، كما يعتمد بعضها على النصوص المخطوطة. وقد يعتمد بعضها على المعنى فيتصرف في اللفظ، وينشأ عن ذلك خلل واضطراب.

هذه ملاحظات أولية على ما تضمنه عدد من المصادر الأساسية التي تحدثت عن كلثوم بن عمرو العتابي. بيد أن شيئاً من التأمل وإطالة النظر من شأنه أن يطلعنا على خصائص أخرى تتسم بها هذه المصادر، نوردها على النهج التالي:

1 ـ كان النص الذي أورده ابن قتيبة في الشعر والشعراء هو أقصر

النصوص التي تناولت العتابي، إذ لم يورد ابن قتيبة أكثر من نص مقتضب عن العتابي، وقصة دخوله على المأمون بعد غياب طويل، وما جرى بينهما من حوار طريف، ونصين شعريين لا يتجاوز الواحد منهما بيتين من الشعر. وهذا يعني أن ابن قتيبة الذي هو أقرب المؤرخين زمناً من العتابي، كانت معلوماته ضئيلة عنه. وربما لجأ ابن قتيبة إلى الإيجاز، خشية الوقوع في الإطناب والتطويل، لأن كتاب (الشعر والشعراء) يشتمل على أسماء كثير من الشعراء. فلو توسع في الحديث عن كل منهم، لخرج إلى ما لا يستحب من الإطالة والتضخم.

2 ـ أما النص الذي ساقه أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه، فيعد أكثر النصوص التي أوردتها المصادر اتساعاً وإحاطة كما أسلفنا، فقد توسع الأصفهاني في التعريف بالعتابي، من حيث نسبه وثقافته وأخلاقه ومواهبه وعلاقاته وشعره، وكل ما يتعلق به من قريب أو بعيد. ويعتمد الأصفهاني أسلوب أهل الحديث في نقل أخباره، فيذكر السند أولاً ثم يتبعه بالنص، تحرياً للصدق وطلباً للحقيقة. كما يورد نماذج من شعره في موضوعات مختلفة. ولا أظن أحداً من المؤرخين أضاف إلى ما قدمه الأصفهاني جديداً. ولذلك يبقى كتاب الأغاني هو المصدر الأساسي الأكبر لكل ما كتب عن العتابي. ولا بد لمن يريد أن يكتب شيئاً عن العتابي أن يعود إلى هذا المصدر، فيأخذ منه ما يراه مناسباً من الروايات والأخبار التي من شأنها أن تمد الناقد الزكن الفطن بالكثير مما يلقي الضوء على حياة هذا الشاعر وأدبه.

3 ـ يجري الخطيب البغدادي في الحديث عن العتابي على خطى الأصفهاني في أغانيه، فلا يكاد يذكر جديداً أو يضيف مزيداً، فهو يورد نسب الرجل ويذكر بعض أخباره كما هي مثبتة في الأغاني، مع تصرف قليل في النصوص. ومع ذلك نجده يورد ثلاثة نصوص شعرية لم يوردها الأصفهاني.

النص الأول ومطلعه:

إني لأخفي من علمي جواهره كي لا يرى العلم ذو جهل فيفتتنا

النص الثاني ومطلعه:

ألا قد نكس الدهر فأسمى حلوه مرا

النص الثالث ومطلعه:

بـقـيـت بـلا قـلـب لأنـي هـائـم فهل من معير يا خلوب بكم قلبا؟

ومهما يكن فإن الخطيب البغدادي يؤكد كثيراً من روايات الأصفهاني حول نسب العتابي وشعره وعلاقاته مع البرامكة ثم الرشيد والمأمون. وإذا لم يكن قد أتى بجديد فحسبنا منه هذه النصوص الشعرية الثلاثة التي أشرنا إليها.

4 ـ يتضمن كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي، روايات كثيرة مما أورده الأصفهاني وغيره. ومع ذلك يورد نصّاً شعرياً لا يورده غيره. وهو النص الذي نظمه العتابي حينما بلغه أن عمرو بن مسعدة ذكره عند المأمون بسوء ومطلعه:

قد كنت أرجو أن تكون نصيري وعلى الذي يبغي عليّ ظهيري

وكذلك يورد له نصاً نثرياً قصيراً هو قوله: أما بعد، فإنه ما من مستخلص غضارة عيش إلا من خلال مكروه، ومن انتظر بمعاجلة الدرك مؤاجلة الاستقصاء سلبته الأيام فرصتها. وكذلك يورد نصاً نثرياً ستتطرق إليه عند الحديث عن العتابي الكاتب البليغ الحكيم.

5 ـ يكرر ابن خلكان أيضاً في وفياته معظم ما سرده الأصفهاني، ولا يكاد يذكر جديداً، إلا بعض الطرائف التي لا تضيف كثيراً إلى شمائل العتابي وطباعه، كما أنها لا تخلو من خلل واضطراب. ولا بأس في أن نورد هذه الطرائف لقصرها.

ـ قيل للعتابي قد فلح ابن مسلم الخلق. قال: لعله أكل من شعره.

ـ اجتمع قوم من الشعراء على فالوذجة حارة. فقال أحدهم يخاطب شخصاً منهم: كأنك مكانك من النار، قال له: أصلحها ببيت من شعرك.

ـ قيل: كان مروان بن السمط يرمي في شعره بالبرد، وكانت له بغلة بالبصرة، لا يفارق ركوبها فقال الجماز يهجوه. ولا يثبت ابن خلكان هذه الأبيات.

هذه الطرائف تتسم بالقصر وقلة الإثارة وغموض الهدف. ونستخلص من ذلك كله أن ابن خلكان لم يسهم كثيراً في إيضاح الصورة التي أراد أن يقدمها للعتابي.

هذه هي المصادر الأساسية التي تتحدث عن العتابي، وهذ لا يعني أن مصادر أخرى لم تتطرق إليه، فقد ورد ذكره في مصادر أخرى نعد منها عيون الأخبار لابن قتيبة، والبيان والتبيين للجاحظ والموشح للمرزباني وبهجة المجالس للقرطبي. وسنبين كل ذلك في الدراسة التي سنديرها على العتابي في الصفحات التالية.

ثانياً: حياته:

كلثوم بن عمرو العتابي شخصية أدبية بارزة من شخصيات العصر العباسي الأول، وهي شخصية متعددة المواهب والسمات. فلقد كان العتابي أديباً مصنفاً، كما كان شاعراً متقناً، وكاتباً مجيداً، وخطيباً بليغاً، ومتكلماً قديراً، ومحدثاً بارعاً، وأكثر من ذلك أنه كان زاهداً متصوفاً يميل إلى مذهب الاعتزال. وشخصية من هذا النوع ليس من السهل دراستها والإتيان على جميع جوانبها. وهذا التنوع في شخصية العتابي لم يكن خيراً على كل حال. فقد كان سبباً في عدم اتساع شهرته وضياع وجهه بين الوجوه. فلو عرف بالشعر وحده لكان استحق شهرة أبي نواس ومسلم بن الوليد. ولو عرف بالكتابة وحدها لكان في طبقة الجاحظ وأمثاله وهكذا. فمن الملاحظ أن الشعراء الكبار لم يكونوا يجيدون غير الشعر. وحسبنا أن نذكر أبا تمام والبحتري والمتنبي في القديم، وشوقي وحافظاً ومطران في الحديث. فقد كان كل من هؤلاء معروفاً بالشعر متخصصاً فيه. ولم يشتهر أحد منهم بغير الشعر. فهذا التنوع في شخصية العتابي، إن يكن نعمة من وجه فهو نقمة من وجوه أخرى. إننا لم نقرأ في كتب الأدب شيئاً عن العتابي، في حين قرأنا الكثير عن أبي نواس ومسلم بن الوليد والعباس بن الأحنف وهم من أنداده ونظرائه إن لم يكن في الشعر ففي الزمن والعصر. ولو بحثنا عن السبب لما وجدناه في غير تنوع مواهبه وتصرفه في فنون القول. ولعل لذلك سبباً آخر هو أنه لم يترك

ديواناً شعرياً كما ترك غيره، كما لم يترك إنتاجاً نثرياً كالجاحظ وأبي حيان التوحيدي مثلاً. وهكذا انحصرت المعلومات المعروفة عن العتابي فيما يتناقله الرواة والمؤرخون من أخباره التي تتضمن الغرائب والطرائف والحكم وجوامع الكلم، مما يدل على قوة البديهة وسرعة الخاطر. ومهما يكن فسنحاول أن نتتبع العتابي، وأن نرسم صورة له، إن لم تكن صحيحة حقيقية، فنأمل أن تكون قريبة من ذلك، وسيكون حديثنا عن العتابي من خلال النقاط التالية:

أ ـ اسمه ونسبه:

هو كلثوم بن عمرو بن أيوب بن عبيد بن حبيش بن أوس بن سعود بن عبد الله بن عمرو الشاعر بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل[1]. وعمرو بن كلثوم المذكور في أجداده هو أحد شعراء السبع الطوال[2] أي المعلقات. وكنية العتابي أبو عمرو[3]. وليس ببعيد أن يكون العتابي قد ورث ملكة الشعر من بني قومه، ذلك أن حبل الشعر فيهم ظل موصولاً لأزمنة متتابعة. فمن شعراء تغلب في الإسلام كعب وعميرة ابنا جعيل، والأخطل والقطامي وتميم بن جميل ثم بنو حمدان ـ وكانوا جميعاً شعراء وعلى رأسهم الشاعر الأمير الحارث بن أبي العلاء المعروف بأبي فراس[4]. وقد كان العتابي يعتز بنسبه هذا الذي ينتهي به إلى عمرو بن كلثوم، وإن كان يذكر ذلك في إطار من الشعور بالحسرة للفارق الشديد بينه وبين جده الأعلى، يتجلى في قوله[5]:

إني امرؤ هدم الإقتار مأثرتي ... واجتاح ما بنت الأيام من خطري
أيام عمرو بن كلثوم يسوده ... حيا ربيعة والأفناء من مضر
أرومة عطلتني من مكارمها ... كالقوس عطلها الرامي من الوتر

(1) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 17/27.
(2) م، ن.
(3) م. ن.
(4) مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء في العصر العباسي ص 495.
(5) م.ن.

ب ـ ولادته ونشأته:

لا يذكر المؤرخون تاريخ ولادة العتابي. ولكنهم يذكرون أنه نشأ في قنسرين ثم سكن الرقة بالموصل وتحول إلى بغداد[6]، حيث قضى معظم أيام حياته متصلاً بالبرامكة ثم بالرشيد والمأمون. وما زال العتابي منقطعاً إلى البرامكة، حتى إذ فتك بهم الرشيد ظل يمدحه واصلاً أسبابه بطاهر بن الحسين وابنه عبد الله بن طاهر وعلي بن هشام أحد القواد الأجواد في العصر. ويظهر أنه كان يكثر من التردد على الرقة ورأس عين في ديار الجزيرة شمال العراق. ولما تحول المأمون من مرو إلى بغداد وعقد المجالس لجلة العلماء يتناظرون ويتحاورون بين يديه أشخص العتابي إليه، ووالى بره ونواله[7]. وقد اضطر في بعض الأحيان للهرب إلى اليمن خوفاً من الرشيد، إذ إنه كان يعادي مذهب الاعتزال الذي كان العتابي يميل إليه. وقيل إن الرشيد طلبه لأنه رمي بالزندقة والرفض[8].

ج ـ وفاته:

يغض مؤرخو العتابي البصر عن تاريخ وفاته كما غضوا البصر عن تاريخ ميلاده. ولم أجد من أشار إلى ذلك في القدماء إلا ابن شاكر الكتبي، فقد ذكر في فوات الوفيات[9] أنه توفي في حدود سنة 220 هـ/ 835 م. وقد أخذ عنه من المحدثين كل من عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين[10]، وخير الدين الزركلي في الأعلام[11] ولويس معلوف في المنجد[12] ومصطفى الشكعة في الشعر والشعراء في العصر العباسي[13] وميشيل عاصي وزميله في المعجم

---

(6) شوقي ضيف: العصر العباسي الأول ص 419.

(7) م.ن ص 420.

(8) المرزباني: معجم الشعراء ص 218 ـ 219.

(9) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، 3/ 219.

(10) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 8/ 145.

(11) خير الدين الزركلي: الأعلام، 6/ 89.

(12) لويس معلوف: المنجد (الأعلام) ص 455.

(13) مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء ص 510.

المفصل[14]. في حين جعل بروكلمان تاريخ وفاته سنة 208 هـ/ 823 م في تاريخ الأدب العربي[15] وقد اعتمد عليه شوقي ضيف في العصر العباسي الأول[16]. وقد صرح بعضهم بأنه أخل به (أي أهمله) لأنه لم يظفر له بوفاة[16]. وعلى الرغم من ذلك يبدو أن هذا التاريخ (أقصد سنة 220 هـ/ 835 م) هو تاريخ تقديري، بدليل أن صاحب فوات الوفيات يقول: توفي في حدود 220 هـ. ولو كان هذا التاريخ صحيحاً وحقيقياً، لقال توفي سنة كذا، كما جرى مدونو التاريخ العربي.

د ـ مواهبه الأدبية:

كان العتابي ذا مواهب متعددة كما ذكرنا في مقدمة هذا البحث، إذ كانت له قدم راسخة في الشعر والكتابة والخطابة والكلام. ولقد أفاض المؤرخون في الإشارة إلى هذه المواهب.

قال الجاحظ ـ أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255 هـ / 868 م): ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابي[17].

قال ابن قتيبة ـ أبو محمد بن عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ/ 889 م): وكان شاعراً محسناً، وكاتباً في الرسائل جيداً، ولم يجتمع هذان لغيره[18].

قال ابن المعتز ـ عبد الله بن محمد (ت 296 هـ/ 908 م): كان العتابي مجيداً مقتدراً على عذب الكلام، وكاتباً جيد الرسائل حاذقاً، وقلما يجتمع هذان لأحد، ما سمعت كلاماً قط لأحد من المتكلمين أحسن من كلام العتابي فإنه كان فحل الشعر جيد الكلام[19].

---

(14) ميشيل عاصي وزميله: المعجم المفصل، 2/ 811.

(15) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي 2/ 36.

(16) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 4/ 122 (الحاشية).

(17) الجاحظ: البيان والتبيين، 1/ 51.

(18) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص 740.

(19) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص 262.

قال المسعودي ـ علي بن الحسين بن علي (ت 345 هـ/ 956 م): كان من العلم والقراءة والأدب والمعرفة والترسل وحسن النظم للكلام وكثرة الحفظ وحسن الإشارة وفصاحة اللسان وبراعة البيان والمكاتبة وحلاوة المخاطبة وجودة الحفظ وصحة القريحة على ما لم يكن لكثير من الناس في عصره مثله[20].

قال أبو الفرج الأصفهاني ـ علي بن الحسين (356 هـ/ 966 م): شاعر مترسل بليغ مطبوع، متصرف في فنون الشعر مقدم في الخطابة والرواية، حسن العارضة والبديهة[21].

قال ابن النديم ـ محمد بن إسحاق (ت 438 هـ/ 1046 م): كان العتابي أديباً مصنفاً[22].

قال الحصري ـ أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت 438 هـ/ 1061 م): كان صاحب بديهة في المنظوم والمنثور، حسن العقل والتمييز. والعرب تقول: من تمنى رجلاً حسن العقل، حسن البيان حسن العلم، تمنى شيئاً عسيراً. وقد اجتمع ذلك كله في العتابي[23].

قال الخطيب البغدادي ـ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت 463 هـ/ 1070 م): كان شاعراً خطيباً بليغاً مجيداً[24].

قال ابن خلكان ـ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681 هـ/ 1282 م): مترسل بليغ مطبوع متصرف في فنون من الشعر، مقدم في الخطابة والرواية حسن العارضة والبديهة[25]. وهو منقول عن أبي الفرج. قال أحمد أمين من المعاصرين: إن العتابي شخصية نادرة، لم تقدر قدرها اللائق بها[26].

---

(20) المسعودي: مروج الذهب، 4/ 15.

(21) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، 13/ 109.

(22) ابن النديم: الفهرست ص 238.

(23) الحصري: زهر الآداب، 3/ 674.

(24) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 12/ 488.

(25) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 4/ 548.

(26) أحمد أمين: ضحى الإسلام 1/ 181.

فهذا كله يدل على أن العتابي كان شخصية متعددة الجوانب ثرة المواهب، وأنه كان رجلاً تبدو عليه مخايل النبوغ، وتتألق في وجهه أمارات الذكاء والعبقرية. وسنلقي على هذه المواهب مزيداً من الضوء عند حديثنا عن ظواهر نبوغه في الكتابة والشعر.

هـ ـ صفاته وطباعه:

أول ما يبدو من صفات العتابي الجسمية أنه كان قصيراً، وقد شكا في بعض شعره من اجتماع القصر مع الشيب فيه، بحيث صار يحس بشيء من الضيق في نفسه، قال في ذلك[27]:

نهى طراف الغواني عن مواصلتي ما يفجأ العين من شيبي ومن قصري

مع أن كثير عزة كان يدافع عن هذا القصر بثقة ورباطة جأش. قيل إنه دخل على عبد الملك بن مروان في أول خلافته، فقال عبد الملك: أنت كثير؟ فقال: نعم، فاقتحمه، وقال: تسمع بالمعيدي لا أن تراه! فقال: يا أمير المؤمنين، كل إنسان عند محله رحب الفناء شامخ البناء، عالي السناء، وأنشد يقول:

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير إذا تراه فيخلف ظنك الرجل الطرير
بغاث الطير أطولها رقاباً ولم تطل البزاة ولا الصقور
خشاش الطير أكثرها فراخاً وأم الباز مقلاة نزور
ضعاف الأسد أكثرها زئيراً وأصرمها اللواتي لا تزير
وقد عظم البعير بغير لبٍّ فلم يستغن بالعظم البعير
يقوده الصبي بكل أرض ويصرعه على الجنب الصغير
فما عظم الرجال لهم بزين ولكن زينهم كرم وخير

فقال عبد الملك: قاتله الله! ما أطول لسانه، وأمد عنانه، وأوسع

(27) مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء ص 496.

جنانه، إني لأحسبه كما وصف نفسه[28]. فهذا فارق كبير بين العتابي الذي يصغر بقصره ويتضاءل وكثير الذي يعظم بقصره ويستطيل. والقضية أولاً وأخيراً تعود إلى عوامل نفسية.

وأكثر من ذلك أن العتابي كان يشكو الفقر، فيجد صفة أخرى من الصفات التي تحني الظهر وتطامن الهامة، وبخاصة حين يقيس نفسه إلى جده عمرو بن كلثوم الذي يجد في نفسه الكفاية لأن يسد مسده، لولا ضيق ذات اليد وسوء الحالة المادية. يقول في ذلك[29]:

إني امرؤ هدم الإقتار مأثرتي ... واجتاح ما بنت الأيام من خطري

أيام عمرو بن كلثوم يسوده ... حيًا ربيعة والأفناء من مضر

أرومة عطلتني من مكارمها ... كالقوس عطلها الرامي من الوتر

ويبدو أن فقره هذا كان قد ترك ترسبات سيئة في نفسه. فقد كان يرى هذ الفقر هو مشكلة المشكلات بالنسبة إليه. ومما يروى في ذلك أن العتابي كان جالساً ذات يوم ينظر في كتاب، فمر به بعض جيرانه، فقال: إيش ينفع العلم والأدب من لا مال له؟ فأنشد العتابي يقول[30]:

يا قاتل اللّه أقواماً إذا ثقفوا ... ذا اللبِّ ينظر في الآداب والحكم

قالوا وليس بهم إلا نفاسته ... أنافع ذا من الإقتار والعدم؟

وليس يدرون أن الحظ ما حرموا ... ـ لحاهم اللّه ـ من علم ومن فهم

ومن صفات العتابي أنه كان زاهداً متصوفاً. فكان لا يعير بهارج دنياه أي اهتمام. فقد ذكرت إحدى الروايات أن الرشيد أمر بإشخاصه من رأس عين، فوافى الرشيد وعليه قميص غليظ، وفروة وخف، وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل، فلما رفع الخبر بقدومه أمر الرشيد بأن تفرش له حجرة، وتقام له وظيفة ففعلوا، فكانت المائدة إذا قدمت إليه أخذ منها رقاقة وملحاً وخلط

(28) الحصري: زهر الآداب 2/ 410 ـ 411.

(29) الشكعة: م. س.

(30) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني 13/ 119.

الملح بالتراب فأكله بها، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض والخدم يتفقدونه، ويتعجبون من فعله. وسأل الرشيد عنه، فأخبروه بأمره فأمر بطرده[31].

ويبدو أن شاعرنا اتخذ الزهد والتقشف منهجاً له في الحياة، يعتز به ويدافع عنه ويبين حسناته ويردع من يعاتبه عليه. فقد عاتبه يحيى بن خالد على لباسه، وكان لا يبالي أي ثوبيه ابتذل! فقال: أبعد الله رجلاً همُّه أن يكون جماله في لباسه وعطره. وإنما ذلك حظ النساء وأهل الأهواء، حتى يرفعه أكبراه: همته ولبه ويعلو به معظماه: لسانه وقلبه[32]. فمناط العظمة والاعتزاز عند العتابي هو الجوهر لا المظهر. والجوهر محصور عنده في همته ولبه ولسانه وقلبه. وكل من هذه الأشياء ترمز إلى صفة مستحبة. فالهمة ترمز إلى الشجاعة والطموح، واللب يرمز إلى العقل والتفكير، واللسان يرمز إلى الفصاحة وبراعة المنطق، والقلب يرمز إلى الشجاعة وسائر العواطف الإنسانية. والذي يعتز بهذه الصفات ويعيرها كبير اهتمام لا يبقى عنده أي اهتمام للباس وطراز الثوب.

على أن في القضية نقطة ينبغي التوقف عندها. وهي أن العتابي اختار منهج الفقر والتقشف برضى وطواعية نفس. فلا يحق له أن يشكو الفقر، لأنه قد اختاره بنفسه. ولا يعقل أحد أن يبقى من ينادم الرشيد ويجالس البرامكة فقيراً لولا أنه اختار ذلك. والذي يختار شيئاً لا يحق أن يشكو من حاله، أو أن يجعل علة تعسه قلة ماله.

إن المصادر تتضمن أخباراً وروايات كثيرة على أن العتابي كان يختار هذا الفقر والتقشف بمنتهى التصميم والإصرار. وللتدليل على ذلك نسوق بقية القصة السابقة التي أوردها أبو الفرج الأصفهاني بخصوص استدعاء الرشيد للعتابي وعودته من عنده مطروداً بسبب تحرجه من قبول ما كان يعرضه عليه

---

(31) الأصفهاني: م.ن 13/ 122.

(32) الحصري: زهر الآداب 3/ 674.

خدمه من راحة ورفاهية. قال أبو الفرج: فخرج (أي بعد طرد الرشيد له) حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلي وهو في منزله، فسلم عليه، وانتسب له، فرحب به، وقال له: ارتفع، فقال: لم آتك للجلوس، قال: فما حاجتك؟ قال: دابة أبلغ عليها إلى رأس عين، فقال: يا غلام، أعطه الفرس الفلاني، فقال لا حاجة لي في ذلك، ولكن تأمر أن تشتري لي دابة، أتبلغ عليها. فقال لغلامه: امض معه، فابتع له ما يريد. فمضى معه، فعدل به العتابي إلى سوق الحمير، فقال له: إنما أمرني أن ابتاع لك دابة. فقال له: إنه أرسلك معي، ولم يرسلني معك، فإن عملت ما أريد وإلا انصرف. فمضى معه، فاشترى حماراً بمائة وخمسين درهماً، وقال: ادفع إليه ثمنه، فدفع إليه، فركب الحمار عُرْياً بمرشحة عليه وبرذعة، وساقاه مكشوفتان، فقال له يحيى بن سعيد. فضحتني، أمثلي يحمل مثلك على هذا؟ فضحك، وقال: ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك. ومضى إلى رأس عين[33].

فالعتابي أبى أن يركب فرساً، كما أبى أن يركب بغلاً وهو المقصود بالدابة، وأبى إلا أن يركب حماراً عارياً مجرداً من أي شيء. ورجل من هذا القبيل لا يحق له أن يعتب على الأقدار أو أن يشكو الفقر أو أن يتأفف من سوء الحظ، لأنه هو الذي اختار ذلك.

وربما كان هذا الزهد والتعفف في سني عمره الأخيرة، إذ إن المصادر تشير إلى أنه كان يمدح الخلفاء والوزراء والبرامكة، ويحرص على نيل صلاتهم. يقول شوقي ضيف بهذا الصدد: وسمع يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد بفضله فوصله به وبمجالسه[34]، وأخذ يضفي عليه من مدائحه، ولم يلبثوا أن قدموه إلى الرشيد، فمدحه ونال جوائزه السنية مع انقطاعه لهم. وإذا كان يمدح الخلفاء والأمراء والوزراء وينال صلاتهم، فكيف يصح منه هذا التعفف الكثير الذي أشرنا إليه فيما سبق؟ والجواب على ذلك من وجهين: إما أن ثمة تناقضاً في الروايات، وإما أنه اختار الزهد والتقشف منهجاً له بعد أن

---

(33) الأصفهاني: الأغاني 13/ 123.

(34) شوقي ضيف: العصر العباسي الأول ص 420.

بلغ الكهولة أو مشارف الشيخوخة. وهذا ما ترجحه الروايات والأحداث. وإلا فما الذي يحمله على الاعتذار إلى أحدهم فيقول[35]:

ردت إليك ندامتي أملي وثنى إليك عنانه شكري
وجعلت عتبك عتب موعظة ورجاء عفوك منتهى عذري

قد يقال: إن الاعتذار قد يكون تجنباً للقتل أو السجن لا طمعاً في المال. وهذا جائز ولكن الأخبار تدل على أنه كان يطلب المال وكان يسعى في سبيل الحصول عليه وكان يسر بتسلمه، وكان يعاتب على تقصير الممدوحين. فهذا شيء يدعو إلى فضل دراسة وإنعام نظر.

ومن صفات العتابي، أنه كان وفياً يقدر أعمال الآخرين ويشكرهم عليها ويشجعهم على متابعتها وتكرارها، فمن ذلك قوله[36]:

فلو كان للشكر شخص يبين إذا ما تأمله الناظر
لمثلته لك حتى تراه لتعلم أني امرؤ شاكر

ومن هذا القبيل ما مدح به جعفر بن يحيى البرمكي، حين خلصه من غضب الرشيد، إذ كان قد بلغه عنه ما أهدر به دمه. قال[37]:

ما زلت في غمرات الموت مطرحاً يضيق عني فسيح الرأي من حيلي
فلم تزل دائباً تسعى بلطفك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

فهو في هذا وأمثاله شاكر يحفظ المعروف، ويدوم على العهد، لا يحاول أن يتنكر لجميل رؤسائه وأولياء نعمته. وهذا كله يدل على أنه يطلب المال ويسعى في سبيل الحصول عليه. وإلا فما مسوغ الشكر واللهج بالثناء؟.

وكان العتابي فوق ذلك كله يحب الصدق والمصارحة، ويكره المداهنة والاحتيال. فمن ذلك أنه سئل عن عدم إقباله على الزواج فقال: إني وجدت

(35) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص 740.
(36) الأصفهاني: الأغاني 13/110.
(37) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 17/27.

مكابدة العفة خيراً من الاحتيال لمصلحة العيال[38] ولا شك في أن مكابدة العفة هو ضرب من ضروب الصدق. ويضرب شاعرنا على هذا الوتر فيقول[39]:

لـوم يـفـيـدك مـن سـوء تـقـارفـه أبقى لعرضك من قول يداجيكا

وقد رمى بك في تيهاء مهلكة من بات يكتمك العيب الذي فيكا

وهو يقول في هذين البيتين إنه أصون لعرضك أن تسمع لوم الناس على سوء تقترفه من أن تسمع مداهنتهم لك، لأن الذي يكتمك ما فيك من عيب، كمن يرمي بك في صحراء خالية تؤدي بك إلى الضياع والهلاك.

ومما كان يتسم به العتابي السخرية والتندر بالناس والنظر إليهم بعين الشك والريبة. وهي الصفة الوحيدة التي أشار إليها أدونيس في مختاراته عند تطرقه للحديث عن العتابي. فقد عدها الصفة الأساسية فيه[40]. ومما يروى في ذلك ما رواه أبو الفرج الأصفهاني نقلاً عن بعضهم، قال: رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام، فقلت له: ويحك أما تستحي؟ فقال لي: أرأيت لو كنا في دار فيها بقر، كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا. قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر. فقام فوعظ وقص ودعا، حتى كثر الزحام عليه، ثم قال لهم: روى لنا غير واحد، أنه من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار. فما بقي واحد إلا وأخرج لسانه يومىء به نحو أرنبة أنفه، ويقدره حتى يبلغها أم لا. فلما تفرقوا، قال لي العتابي: ألم أخبرك أنهم بقر[41]. وهذا الذي يقوله العتابي من أن الناس بقر لجهلهم قال مثله معاصره أبو تمام. فقد نسب إليه قوله:

عليٌ نحت القوافي من معادنها وما عليٌ إذا لم تفهم البقر

وقد نسب إلى البحتري أيضاً:

---

(38) ياقوت الحموي: م. ن 17/ 30.

(39) ياقوت الحموي: م. ن.

(40) أدونيس (علي أحمد سعيد): ديوان الشعر العربي 2/ 522.

(41) الأصفهاني: الأغاني 13/ 114.

وكذلك قال أبو تمام في المعنى نفسه:

لا يدهمنك من دهمائهم عدد فإن أكثرهم أو جلهم بقر

وتشبيه الناس بالبقر شيء درج عليه العلماء وطلاب الأدب والشعر لما كانوا يرونه ويخبرونه من جهل العامة وعدم قدرتها على التمييز. والعتابي واحد من هؤلاء.

ومما يمكن أن يشار إليه بهذا الصدد أنّ العتابي كان يتصف بالشجاعة والثبات، بدليل أن الرشيد عرف ميله إلى الاعتزال أو إلى الزندقة فنقم عليه وأمر فيه بأمر غليظ فهرب إلى اليمن، حتى توسط له يحيى بن خالد البرمكي عند الرشيد واسترضاه عليه[42]. وكان على شجاعته وثباته لطيفاً دمث الأخلاق ميالاً إلى الملاينة وإبداء البشر. قيل له مرة:

إنك تلقى العامة ببشر وتقريب فقال: رفع ضغينة بأيسر مؤونة، واكتساب إخوان بأهون مبذول[43].

وأكثر من ذلك كله أن العتابي كان يحمل بين جوانبه أحاسيس إنسانية عميقة. فقد كان لا يعير القرابة في حياة الناس أي اهتمام. فقد كان يرى أن الود هو العلاقة الأصيلة والأساسية التي تشد الناس بعضهم إلى بعض. وهي الصفة الكفيلة بنشر الهدوء والأمان والاطمئنان بين الناس. وإذا لم يكن ود انتفت القرابة بين الناس. يقول في ذلك[44]:

ولقد بلوت الناس ثم سبرتهم وخبرت ما وصلوا من الأسباب

فإذا القرابة لا تقرب قاطعاً وإذا المودة أكبر الأنساب

ويبدو من كل ما عرضنا من صفات العتابي وطباعه، أنه كان قصيراً وقد عمه الشيب في كهولته أو شيخوخته. وكان فضلاً عن ذلك يملك من الصفات والطباع ما يجعله كبيراً في عين عارفه، فهو زاهد متصوف متقشف، يميل إلى

(42) ابن خلكان: وفيات الأعيان 4/ 122.

(43) ابن خلكان: م. ن. 4/ 123.

(44) ابن خلكان: وفيات الأعيان 4/ 123.

القناعة ويقبل بالقليل من حاجات الدنيا، وهو إلى ذلك وفيّ يشكر من يحسن إليه ويصدق في معاملته مع الناس، ويثبت على المبدأ والعهد فلا يغير مواقفه وقناعاته.

و ـ ثقافتـه:

ذكرنا في بدء حديثنا عن العتابي أنه كان خطيباً كاتباً شاعراً. وهذا يعني أنه كان يملك ثقافة واسعة، إذ لا يمكن أن يملك الإنسان هذه المواهب في الخطابة والكتابة والشعر دون أن يكون مؤهلاً لذلك. وقد عد له ابن النديم الكتب التالية: كتاب الأجواد، كتاب الآداب، كتاب الألفاظ، كتاب الخيل، كتاب فنون الحكم، كتاب المنطق[45]. والموضوعات التي ألفت فيها هذه الكتب تدل على أن العتابي كان واسع الثقافة كثير الاطلاع على الآداب والعلوم. يقول شوقي ضيف في ذلك: اختلف إلى حلقات المتكلمين، ولم يلبث أن شغف بالمعتزلة والاعتزال، كما شغف بالآداب الفارسية شغفاً أداه إلى تعلم الفهلوية من جهة، كما أداه إلى الرحلة مراراً إلى خزائن الكتب بمرو وخراسان، ليتزود منها بكنوز الأدب الفارسي، ورآه شخص يوماً ينسخ بعض صحفها، فسأله متعجباً، لم تكتب كتب العجم؟ فأجابه منكراً سؤاله: وهل المعاني والبلاغة إلا في كتب العجم؟ اللغة لنا والمعاني لهم[46]. ويضيف شوقي ضيف: وكان طبيعياً أن يؤديه اعتزاله إلى قراءة كتب الفلسفة. بل يظهر أنه تعمق في قراءتها. وهو تعمق دفعه إلى أن يؤلف في علم المنطق كتاباً اشتهر في عصره. وله بجانبه مصنفات لغوية وأدبية مختلفة، منها كتاب الألفاظ وكتاب فنون الحكم[47]. وليس حديث تأثر العتابي بالثقافة الفارسية بالشيء الغريب ولا المجهول فقد أشار إليه بروكلمان بقوله: نشأ في قنسرين، وسافر ثلاث مرات إلى بلاد العجم، فتعلم ما كان في خزائن الكتب بمرو ونيسابور من آدابهم. وكثيراً ما عاد ذلك على شعره بثمرات يانعة[48]. وقد يظن ظان أن

---

(45) ابن النديم: الفهرست ص 238.

(46) شوقي ضيف العصر العباسي الأول ص 419 ـ 420 وانظر ص 149.

(47) شوقي ضيف: م. ن ص 420.

(48) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي 2/ 26.

العتابي كان شعوبياً، وأنه كان يقبل على الثقافة الفارسية بهذا الحافز الخبيث الذي كان له تأثيره في الكثيرين من أهل العلم والأدب، فقد كانت الشعوبية ظاهرة متفشية في الناس. بيد أن العتابي كان عربياً صليبة فهو كما سبق أن ذكرنا من نسل الشاعر الكبير عمرو بن كلثوم. وعمرو بن كلثوم كما نعلم من تغلب.

وقد قال الشاعر بهذا الصدد:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

وهذا يعني أن العتابي أقبل على دراسة الفارسية لا لنزعة شعوبية بل لنزعة ثقافية فيه، حملته على طلب العلوم واللغات، كما يطلب أي منا اللغة الإنكليزية في عصرنا هذا لتوسيع مداركه والاطلاع على كل جديد في العلوم والأداب، كذلك فعل العتابي وإن قل من كان يفعل مثل ذلك في عصره.

وكان العتابي، علاوة على ذلك، يتقن علم العروض والنحو والبلاغة كما سنثبت في موضع لاحق. والدليل على ذلك هذا الشعر المتقن المحكم الذي كان يجود به. فلا يمكن أن يصدر هذا الشعر الذي ينسب إليه، وهذه الحكم الغزيرة التي تؤثر عنه، إلا عن إنسان ملك زمام العربية، بمختلف علومها، فضلاً عن الثقافة الفارسية، ما دام يرى أن الثقافة نوعان: أحدهما يتعلق باللغة والآخر يتعلق بالمعاني. وكان العتابي حريصاً على امتلاك ناصية الثقافتين العربية والفارسية أو ثقافة الشكل وثقافة المضمون، إذ كان يرى أن اللغة لنا والمعاني للفرس كما ذكرنا.

وكان العتابي لفرط تعلقه بالقراءة وشغفه بالمطالعة، يحب الكتاب ويبحث عنه، ويفسح له مكاناً في صدره. وقد عبر عن هذه المشاعر الحميمة تجاه الكتاب بهذه المقطوعة الشعرية: قال[49]:

لنا ندماء ما نمل حديثهم أمينون مأمونون غيباً ومشهدا

يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ورأياً وتأديباً وأمراً مسددا

(49) مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء ص 499.

بلا علة تخشى ولا خوف ريبة ولا نتقي منهم بناناً ولا يدا

فإن قلت هم أحياء لست بكاذب وإن قلت هم موتى فلست مفندا

وأكثر من ذلك أنه كان مغرماً بالقلم مشغوفاً به مثل شغفه بالكتاب، فقد كان خبيراً بالقلم وصناعته وبالخط وأنواعه. كان يعرف كل التفصيلات التي تخص صناعة القلم. وهو يتحدث عن ذلك حديث خبير. وقد نقل عنه أنه قال: سألني الأصمعي فقال لي: أي الأنابيب أصلح للكتابة وعليها أصبر؟ فقلت: ما نشف بالهجير ماؤه، وستره عن تلويحه غشاؤه، من التبرية القشور، الدرية الظهور، الفضية الكسور، قال: فأي نوع من البري أكتب وأصوب؟ قلت: البرية المستوية القط، عن يمين سنها برية، تأمن معها المجة عند المط، الهواء في مشقها فتيق، والريح في جوفها خريق، والمداد في خرطومها رقيق. قال: فبقي الأصمعي شاخصاً إليّ ضاحكاً لا يحير مسألة ولا جواباً[50]. فهذا الحديث عن أدوات الخط هو حديث خبير. وبخاصة أن هذا الخبير قادر على أن يفتن الأصمعي ويذهله في حسن تقسيمه وتفصيله بما كان يلم به من أصول الخط وأدواته.

ولا بدع بعد ما عرفنا من ثقافة العتابي أن نراه يجيد في فني المنظوم والمنثور وأن يعد من البلغاء في كلا الفنين، وأن يحتج الجاحظ بأقواله في البلاغة وحسن فهمه لها كما سنبين بعد قليل.

ثالثاً: فنه الكتابي:

لقد نص مؤرخو العتابي على نبوغه في فن المنثور كما أثبتنا في الحديث عن مواهبه الأدبية. وعلى الرغم من أن ابن النديم قد نسب إليه عدداً من الكتب، لم يبق في أيدي الناس منها شيء نستطيع أن ننسبه إليه، ولعلها ضاعت أو أتلفت. ومع ذلك ما زالت كتب الأدب تحتفظ بنصوص قصيرة ومقطوعات صغيرة من فنه الكتابي. وهذه النصوص ليست كلها كتابة صرفاً، فقد تكون نماذج من فنه الخطابي وقد تكون نماذج من أحاديثه في مجالس

(50) الحصري: زهر الآداب 3/ 3 67 ـ 674.

الأدب، وقد تكون نماذج من إجاباته السريعة التي تدل على ما كان يملك من زكانة وفطانة. على أنها لا تخلو من نماذج استخلصت من رسائله إلى الخلفاء والوزراء والحكام، ممن كان له صلة وثيقة بهم. وسنتعرف على أمثلة من هذه النماذج النثرية موزعة في الموضوعات التالية:

أ ـ علم البلاغة:

ينقل الجاحظ عن العتابي في مفهومه لعلم البلاغة ما يدل على خبرة عميقة وعلم واسع. قال الجاحظ: حدثني صديق لي قال: قلت للعتابي: ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة، ويفوق كل خطيب، فإظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق. قال: فقلت له: قد عرفت الإعادة والحبسة، فما الاستعانة؟ قال: أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه: يا هناه، ويا هذا، ويا هيه، واسمع مني، واستمع إلي، وافهم عني، أولست تفهم، أولست تعقل؟ فهذا كله، وما أشبهه عي وفساد[51]. فهذا مما كان يستعين به الجاحظ في تأسيس علم البلاغة وترسيخ أصولها. ولا شك في أن كلام العتابي ينم عن نظرات عميقة وآراء صائبة.

ب ـ الحكمة:

كان العتابي حكيماً وله نظرات في الحياة والناس صائبة. فقد كان ينظر إلى الجوهر ويهمل القشور. قيل له مرة: لم لا تخدم الأمير؟ فقال: لأني رأيته يعطي رجلاً ألف مثقال بلا خصلة، ويرمي آخر من أعلى السور على الرأس بلا ذنب، فلا أدري أي الرجلين أكون عنده، مع أن الذي أعطي في ذلك أكثر من الذي أخذ ـ يريد مهجته ـ وركوب الغرر فيها معه[52]. ومن حكم العتاب قوله من خطبة: أما بعد فإنه لا يخبر عن فضل المرء أصدق من تركه

---

(51) الجاحظ: البيان والتبيين 1/ 113.

(52) القرطبي: بهجة المجالس 1/ 348.

تزكية نفسه، ولا يعبر عنه في تزكية أصحابه أصدق من اعتماده إياهم برغبته، وائتمانه إياهم على حرمته[53]. فهذه الحكم تدل على فهم عميق بالحياة والناس.

ج ـ علم الكلام:

كان العتابي من المتكلمين الذين يجيدون الجدل في المذاهب والأديان. وقد خالط المعتزلة فاكتسب من علمهم وثقافتهم. والمعتزلة كما هو معلوم يعتمدون العقل في إيراد الحجج وإصدارها. وكان العتابي يعتمد العقل في كل الفنون الكلامية التي خاض فيها حتى الشعر. فإن شعره ـ كما سنعلم فيما بعد ـ يقوم على الفكرة وترابط المعاني وانسجامها. ومما جاء بهذا الصدد أن المأمون جمع بين العتابي وأبي قرة النصراني. فقال: تناظرا وأوجزا. فقال العتابي لأبي قرة: أسالك أم تسألني؟ فقال: سلني، قال: ما تقول في المسيح؟ قال: أقول: إنه من اللّه عز وجل. فقال العتابي: إن (من) تجيء على أربعة أوجه: فالبعض من الكل على سبيل التجزؤ، والولد من الوالد على سبيل التناسل، والخل من الحلو على سبيل الاستحالة، والخلق من الخالق على سبيل الصنعة، فهل عندك خامسة؟ قال: لا، ولكني لو قلت واحدة من هذه ما كنت تقول؟ فقال العتابي: إن قلت: إنه كالبعض من الكل جزأته، والباري لا يتجزأ، وإن قلت: إنه كالولد من الوالد أوجبت ثانياً من الأولاد وثالثاً ورابعاً إلى ما لا نهاية. وهذا لا يجوز على الباري عزّ وجلّ، وإن قلت على سبيل الاستحالة، أوجبت فساداً، والباري لا يستحيل ولا ينتقل من حال إلى حال. وإن قلت: إنه كالخلق من الخالق كان قولاً حقاً، وهو الحق الذي لا شك فيه[54]. فهذا ضرب من الجدل الكلامي الذي كان العتابي يتقنه.

د ـ نقد الشعر:

كان العتابي شاعراً وكان خبيراً في نظم الشعر ونقده. وله صولات

---

(53) الجاحظ: م. س 2/ 141.

(54) القرطبي: م. س 1/ 106.

وجولات في نقد الشعر ومحاسبة الشعراء وإبداء الرأي حول قضايا الشعر ومسائله وحسبنا أن نورد الروايات التالية:

1 ـ ذكر العتابي أبا نواس فقال: هو والله شاعر ظريف مليح الألفاظ، إلا أنه أفرط في البديع حتى قال[55]:

لما بدا ثعلب الصدود لنا أرسلت كلب الوصال في طلبه

2 ـ قال المرزباني: يروى أن العتابي قال: لو كشف أبو نواس إسته بين الناس كان أحسن من قوله[56]:

وجه جنان سراة بستان مجتمع فيه كل ألوان

3 ـ قال المرزباني: كان الرشيد أمر بحبس أبي نواس حتى يدع الخمر. فقال في الحبس:

قل للخليفة إنني حتى أراك بكل باس
منذا يكون أبا نواسك إن حبست أبا نواس؟
إن أنت لم ترفع به رأساً فديت فنصف راس

فقال العتابي: ما أحسن نصف رأس خليفة يرفع. فقال: جعلني الله فداءك يا أبا عمرو لا تنبههم لهذا فتهلكني[57].

4 ـ قال المرزباني: لقي العتابي أبا نواس فقال له: يا أبا علي، أما خفت الله حيث تقول:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

فقال له أبو نواس: فما خفت أنت الله حيث تقول:

ما زلت في غمرات الموت مطرحاً يضيق عني وسيع الرأي من حيلي
فلم تزل دائباً تسعى بلطفك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

---

(55) المرزباني: الموشح ص 337.
(56) المرزباني: م. ن.
(57) المرزباني: م. ن 345.

فقال العتابي: قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل قولك. ولكنك أعددت لكل ناصح جواباً[58].

ومن هذا القبيل ما ذكره المسعودي. قال: كان كلثوم العتابي يضع من قدر أبي نواس، فقال له راوية أبي نواس يوماً: كيف تضع من قدر أبي نوس وهو الذي يقول:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

وإن جرت الألفاظ منا بمدحة لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني

قال العتابي: هذا سرقه، قال: ممن؟ قال: من أبي الهذيل الجمحي. قال: حيث يقول ماذا؟ قال: حيث يقول:

وإذا يقال لبعضهم نعم الفتى فابن المغيرة ذلك النعم

عقم النساء فلا يجئن بمثله إن النساء بمثله عقم

قال: فقد أحسن في قوله:

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

قال: سرقه أيضاً، قال له: وممن؟ قال: من شوسة الفقعسي.

قال: حيث يقول ماذا؟ قال: حيث يقول:

إذا ما سقيم حل عنها وكاءها تصعد فيه برؤها وتصوبا

وإن خالطت منه الحشا خلت أنه على سالف الأيام لم يبق موصبا

قال: فقد أحسن في قوله:

وما خلقت إلا لبذل أكفهم وأقدامهم إلا لأعواد منبر

قال: قد سرقه أيضاً، قال: ممن؟ قال: من مروان بن أبي حفصة، قال: حيث يقول ماذا؟ قال: حيث يقول:

وما خلقت إلا لبذل أكفهم وألسنهم إلا لتحبير منطق

---

(58) المرزباني: م. ن 345.

فيوماً يبارون الرياح سماحة ويوماً لبذل الخاطب المتشدق

قال: فسكت الراوية، ولو أتى بشعره كله لقال سرقه[59].

هذه نماذج متنوعة على طول باع العتابي في نقد الشعر، وهي تدل على الحقائق التالية:

1 ـ أن العتابي كان يملك ذوق الناقد وبصره وعلمه.

2 ـ أنه كان يحسن الجدل بسبب إتقانه لعلم الكلام كما سبق أن بينا. وهو يذهب في جدله إلى حد المماحكة والتمحل.

3 ـ أن معاصرته لأبي نواس جعلته لا يرى منه إلا العيوب والمساوىء. ولم يكن العتابي صادقاً في كل ما قال عن أبي نواس ولكن المعاصرة حجاب كما قال النقاد.

4 ـ ليس هذا الذي سقناه نقداً بالمعنى الحقيقي للنقد، فالنقد ينبغي أن يكون نصوصاً مكتوبة. ولكنه يشير إلى أن العتابي كان قادراً على ممارسة النقد. وقد يكون مارسه دون أن يصلنا من نقده شيء.

هـ ـ فن الرسائل:

كان العتابي يجيد كتابة الرسائل. وكان يميل في كتابتها إلى أسلوب الترسل أي البعد عن السجع. ولكنه في الوقت نفسه كان يميل إلى إقامة التوازنات بين عباراته. فمن ذلك قوله من رسالة إلى خالد بن يزيد: أنت أيها الأمير وارث سلفك، وبقية أعلام أهل بيتك، المسدود بك ثلمهم، والمجدد بك قديم شرفهم، والمنبه بك أيام صيتهم، والمنبسط بك آمالنا، والصائر بك آكالنا، والمأخوذ بك حظوظنا، فإنه لم يخمل من كنت وارثه، ولا درست آثار من كنت سالك سبيله، ولا أمحلت معاهد من خلفته في مرتبته[60].

د ـ المحاورة:

كان العتابي قادراً على الإجابة السريعة، بارعاً في إصابة الهدف. من

---

(59) المسعودي: مروج الذهب 3/ 366.

(60) ابن قتيبة: عيون الأخبار 1/ 96.

ذلك أنه دخل على المأمون، فقال له المأمون: خبرت بوفاتك فغمتني، ثم جاءتني وفادتك فسرتني. فقال العتابي: لو قسمت هذه الكلمات على أهل الأرض لوسعتهم، وذلك أنه لا دين إلا بك ولا دنيا إلا معك، فقال: سلني، قال: يداك بالعطية أطلق من لساني[61]. ومن هذا القبيل ما ذكره الأصفهاني من أن العتابي كلم يحيى بن خالد في حاجة بكلمات قليلة، فقال له يحيى: لقد ندر كلامك اليوم وقل. فقال له: وكيف لا يقل وقد تكنفني ذل المسألة، وحيرة الطلب، وخوف الرد؟ فقال يحيى بن خالد؟ واللّه لئن قل كلامك لقد كثرت فوائده. وقضى حاجته[62].

ز ـ الطرائف والنكت:

كان العتابي سريع البديهة قريب الجواب. وكان في الوقت نفسه يضع الكلام في مواقعه ويصيب شاكلة الرمي من أدنى السبل. ومما يروى بهذا الصدد ما رواه الحصري قال: مر النمري بالعتابي مغموماً، فقال: ما لك أعزك اللّه؟ فقال: امرأتي تطلق منذ ثلاث ونحن على يأس منها. فقال له العتابي: وإن دواءها منك أقرب من وجهها. قُلْ: هارون الرشيد، فإن الولد يخرج. فقال شكوت إليك ما بي فأجبتني بهذا؟ فقال: ما أخذت هذا إلا من قولك[63].

إن أخلف الغيث لم تخلف أناملـه أو ضـاق أمـر ذكـرنـاه فـيتـسـع

فهذه جوانب ضافية من نشاط العتابي في فن الكتابة والقول. وكلها تدل على أنه كان ذا خبرة عميقة فيها، وأنه كان يتقن أصول هذا الفن، وأنه كان رأساً فيه أي إنه كان يملك أسلوباً خاصاً به، نبه إليه أنداده وأهل عصره من العلماء والكتاب وحملة القلم.

رابعاً: فنه الشعري:

أجمعت كل المصادر التي تطرقت إلى ذكر العتابي أنه عالج الشعر وأنه

---

(61) ابن قتيبة: م. ن 3/ 126.

(62) الأصفهاني: الأغاني 13/ 114.

(63) الحصري: زهر الآداب 3/ 703.

خاض غماره، وقد أثنت هذه المصادر جميعها على قريحته الشعرية، وعلى ما يمتاز به من خصائص، من شغف بالبديع وولع بالفكرة العميقة وعناية بالصورة الشعرية، وميل إلى الإيجاز والاختصار بسبب تأثره بالأدب الفارسي والثقافة الفارسية. يقول الجاحظ في وصف شعره: وكان العتابي يحتذي حذو بشار في البديع. ولم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة[64]. ويقول: على ألفاظه (يقصد العتابي) وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين، كنحو منصور النمري، ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههما[65].

وتطرق الحصري إلى شعر العتابي فقال: وكان منصور النمري سعى به إلى الرشيد فخافه، فهرب إلى بلاد الروم. وله قصائد يعتذر فيها جيدة مختارة، وهو مشبه في حسن الاعتذار بالنابغة الذبياني. ومن جيد اعتذاره قوله للرشيد[66]:

جعلت رجاء العفو عذراً وشبته ... بهيبة إما غافر أو معاقب

وكنت إذا ما خفت حادث نبوة ... جعلتك حصناً من حذار النوائب

فأنزل بي هجرانك اليأس بعدما ... حللت بواد منك رحب المشارب

أظل ومرعاي الجديب مكانه ... وآوي إلى حافات أكدر ناضب

ولم يثن عن نفسي الردى غير أنها ... تنوء بباق من رجائك ثائب

ويبدو لأدنى نظر أن هذه القصيدة معارضة لقصيدة النابغة الذبياني التي مطلعها:

كليني لهمٍّ يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وكان النابغة قد اعتذر بها للنعمان بن المنذر عن وشايات كانت قد بلغته وتهم نسبت إليه. ويعمد العتابي من خلال هذه القصيدة إلى وصف السرى

(64) الجاحظ: البيان والتبيين 1/ 51.

(65) الجاحظ: م. ن.

(66) الحصري: زهر الآداب 3/ 678.

ولو خاطبه بذلك مخاطب لدفعه وأنكره، لأنه كان عالماً لا يؤتى من معرفة بالشعر، ولم أر أحداً من العلماء بالشعر قط مثل بين العباس والعتابي فضلاً عن تقديم العتابي عليه لتباينهما في المذهب، وذلك أن العتابي متكلف والعباس يتدفق طبعاً، وكلام هذا سهل عذب، وكلام ذاك متعقد كزّ. ولشعر هذا ماء ورقة وحلاوة، وفي شعر ذاك غلظ وجساوة. وشعر هذا في فن واحد ـ وهو الغزل ـ فأكثر فيه وأحسن، وقد أفتن العتابي فلم يخرج في شيء منه عما وصفناه به الخ[70].

فهذه آراء مختلفة في شاعرية العتابي، منها ما يطعن فيه، ومنها ما يعلي مكانته إلى أعلى عليين. بيد أن الذي فضل عباس بن الأحنف على العتابي كان على حق، وقد أحسن الموازنة بين الشاعرين. فلا شك في أن العباس بن الأحنف أشعر من العتابي مهما غلا النقاد في الرفع من شاعرية العتابي والثناء على مكانته، إذ إن العباس بن الأحنف استطاع أن يحقق مكانة رفيعة في الشعر ما زال يشهد لها النقاد حتى أيامنا، بعكس العتابي الذي لم يجر شعره بين الدارسين وفي مختلف البيئات كغيره من الشعراء، على الرغم من قول ابن المعتز في الثناء عليه: وأشعار العتابي كلها عيون، ليس فيها بيت ساقط[71]. وهي شهادة لها قيمتها.

أما المعاصرون فقد تطرقوا إلى هذا الشاعر فكتبوا عنه وحللوا شاعريته ووضعوه في المكانة التي تناسبه بين الشعراء. ونسوق بهذا الصدد نصين مما كتبه المعاصرون في وصف شاعرية العتابي.

ـ قال مصطفى الشكعة: فالعتابي سعى إلى كل ألوان الثقافة، وسارع إلى كل فنون المعرفة، فاغترف من معينها الصافي، ونهل من بحرها الدافق، ومن ثم فقد عد بلاغياً بارزاً بين البلغاء، كاتباً نابهاً بين الكتاب، مؤلفاً ثقة بين المؤلفين، شاعراً مرموق القدر محمود الذكر بين الشعراء، بل إن شعره النابغ من ثقافته قد تميز بالفكرة العميقة والصور البارعة، الأمر الذي يجعلنا لا نتردد

(70) المرزباني: الموشح ص 360.

(71) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص 263.

في أن نعتبره صاحب الفكرة الشعرية التي تتلمذ عليها وقلدها فيما بعد شاعر العربية الكبير أبو تمام، وإن كان العتابي قد ترفع بشعره عن القول الرخيص الذي تورط فيه أبو تمام أحياناً كثيرة[72].

ـ قال شوقي ضيف: وعلى هذا النحو كان العتابي لا يزال يلذ عقول سامعيه وقلوبهم بما يورد عليهم من نوادر الأخيلة وطرائف المعاني محتالاً لذلك متلطفاً له بكل ما ادخره عقله واقتناه من بيئة المعتزلة وكنوزها الفكرية الغنية وقد ظل الناس يفتنون بشعره، وهو يعرض عليهم مبتكراته في معانيه حتى انتقل إلى جوار ربه[73].

وصفوة القول إن العتابي شاعر مقل، فقد كانت له مشاغل كثيرة تشغله، وما وصلنا من شعره قليل لسبب لا نعلمه. ولم يبلغ العتابي في شهرته الشعرية ما بلغه غيره من شعراء جيله مثل أبي نواس ومسلم بن الوليد. ولعل السبب في ذلك كثرة اهتماماته من كتابة وخطابة وجدل ومحاورة. وإذا كانت موهبة حافظ إبراهيم في التحديث والهيمنة على المجالس قد حدت من شاعريته واستفرغت جهده في مغازلة القوافي بحيث استطاع شوقي الساهم الصامت أن يبزه في ميدان القصيد، فإن مشاغل العتابي الكثيرة قد تحيفت موهبته الشعرية فقللت من إنتاجه وحدت من قدرته. ولولا ذلك لكان بلغ مبلغاً أعظم ومكانة أعلى في عالم الشعر.

الخاتمـة

هذه جولة قصيرة في حياة العتابي ومواهبه الأدبية. كان من الممكن أن تكون أشمل وأوفى لولا أن المقصد كان كتابة بحث لا كتابة رسالة جامعية. وقد يقوم من بين الباحثين من يوفي العتابي حقه، فيكتب فيه كتاباً أو رسالة جامعية ويأتي على كل مواهبه الأدبية، وبخاصة شاعريته التي هي بحاجة إلى كثير من التوسع والإفاضة. وعسى أن تسنح الفرص بإنجاز ذلك في ظروف أخرى قادمة إن شاء الله.

---

(72) الشكعة: الشعر والشعراء ص 495.

(73) شوقي ضيف: العصر العباسي الأول ص 425.

المصادر والمراجع

1 ـ ابن المعتز: عبد الله بن المتوكل بن المعتصم بن هارون (ت 296 هـ/ 908 م) طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة، دار المعارف، 1981 م.

2 ـ ابن النديم: محمد بن إسحاق (ت 438 هـ/ 1046 م). الفهرست، تحقيق ناهد عباس عثمان، الدوحة، دار قطري بن الفجاءة، 1985 م.

3 ـ ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681 هـ/ 1282 م). وفيات الأعيان ج 4 تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1971.

4 ـ ابن شاكر الكتبي: محمد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت 276 هـ/ 1362 م): فوات الوفيات ج 3 تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1951 م.

5 ـ ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ/ 889 م): الشعر والشعراء، تحقيق دار الثقافة، بيروت، 1964 م.

6 ـ أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسين (ت 356 هـ/ 976 م): الأغاني ج 13 مصور عن طبعة دار الكتب، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت (لا.ت).

7 ـ الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (255 هـ/ 868 م): البيان والتبيين ج 1 تحقيق محمد عبد السلام هارون، القاهرة، دار الفكر، 1948.

8 ـ الحصري: أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت 453 هـ/ 1061 م): زهر الآداب، ج 3 تحقيق زكي مبارك، بيروت، دار الجيل، 1972 م.

9 ـ الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت 463 هـ/ 1070 م): تاريخ بغداد، ج 12 المدينة المنورة، المكتبة السلفية، (لا.ت).

10 ـ الشكعة، مصطفى: الشعر والشعراء، في العصر العباسي، بيروت، دار العلم للملايين، 1973 م.

11 ـ القرطبي: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (ت 463 هـ/ 1071 م)، بهجة المجالس وأنس المجالس، بيروت، دار الكتب العلمية، 1981 م.

12 ـ المرزباني: أبو عبد الله محمد بن عمران (ت 384 هـ/ 994 م):

أ ـ معجم الشعراء، تحقيق . كرنكو، بيروت، دار الجيل، 1991 م.

ب ـ الموشح، تحقيق محمد علي البجاوي، القاهر، دار الفكر العربي، 1965 م.

13 ـ المسعودي: علي بن الحسين بن علي (ت 345 هـ/ 956 م): مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 4 تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، دار الفكر، 1973 م.

14 ـ بروكلمان: كارل، تاريخ الأدب العربي ج 2 ترجمة عبد الحليم النجار، مصر، دار المعارف، 1977.

15 ـ ضيف، شوقي: العصر العباسي الأول، مصر، دار المعارف، 1972 م.

16 ـ كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين ج 8 بيروت، مكتبة المثنى، (لا.ت).

17 ـ ياقوت الحموي: أبو عبد الله بن عبد الله (ت 626 هـ/ 1227 م): معجم الأدباء، ج 17 تحقيق فريد الرفاعي، مصر، دار المأمون، (لا.ت).